من الشك الفلسفي إلى النسبية العلمية "دراسة كرونولوجية"

د. شادلي هواري أستاذ محاضر -ب- شعبة الفلسفة جامعة سعيدة
عضو في مخبر تطوير البحث في العلوم الاجتماعية والانسانية – سعيدة -

ملخص:

عرف تاريخ الفكر الفلسفي نماذج معرفية متعددة عالجت قضايا متنوعة منها ما يتعلق بالمسائل العقلية ومنها ما يتعلق بالوقائع الحسية، وكل هذه المعارف عرفت فكراً آخراً موازياً يمثل النزعة الشكية، فكانت الإرهاصات الأولى مع الشك المطلق عند السفسطائيين كعقيدة فلسفية انبثقت خلال أزمة المجتمع، وجاءت كرد فعل على المذاهب الفلسفية السابقة التي حاولت أن تفسر العالم الحسي عن طريق المجادلات التأملية، لكن الشك ظهر بصورة مختلف في تاريخ الفلسفة، فهناك شك لا يستهدف الشك في حد ذاته بل يتطلع لبلوغ اليقين، وهو ما يسمي بالشك المنهجي.

ساهم الشك في بناء وتوليد المعرفة عبر كل مراحل الفكر الفلسفي بدءاً بسقراط ووصولاً لـ"فيرابند". كما تجسدت معاني الشكية في الفلسفة النقدية لـ"كانط" وأخذت مدلولاً أقرب من النسبية مع "هاملتون" فيما يسميه"التفكير شرط" ومع "بوانكاريه"الذي تبنى مبدأ النسبية معتبراً النظريات العلمية بناءات مؤقتة، ساهمت هذه الفكرة في ظهور النظرية النسبية عند "أينشتاين".

الكلمات المفتاحية

الشك، النسبية، اليقين، المطلق، المعرفة، العلم، الفلسفة

Abstract :

The history of philosophical thought has observed a number of cognitive models dealing with a variety of issues, including those related to rational and empirical. Yet, another new parallel thought, called skepticism, has been emerged. At first, it appeared as the absolute skepticism to sophists who regarded it as a philosophical belief during the crisis of society. Further, opposed to the precedent philosophical doctrines that attempted to explain the sensory world by means of contemplative arguments, skepticism arose. Thus, along with historical development of philosophy, a new skepticism which is not concerned about the uncertainty in itself, but it searches certainty in a systematic method. This is what it is called “Methodological Skepticism.”

Therefore, skepticism addionally contributed to the construction and generation of knowledge through all phases of philosophical thought, from Socrates to Feyerabend. Besides, the sense of skepticism was incorporated in the critical philosophy of Kant, and it took a much closer analogy with Hamilton who named it “Thinking Condition." Moreover, Poincare, who adopted the principle of relativity, considered the theories of science as temporary constructs". This theory, hence, encouraged Albert Einstein to discover the Theory of Relativity.

Key words Skepticism, relativity, certainty, absolute, knowledge, science, philosophy

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مقدمة:

لا يخلو البحث الفلسفي عبر تاريخه من النظرة الشكية، فهو يمثل أولى مراتب اليقين يحرك الفكر ويغير مساره باحثاً عن الحقيقة داخل الأروقة المتعددة للمعرفة، فبداية الشك مقترن دائماً مع بداية المعرفة القائمة على النقد، فالوعي بتاريخ الشك هو وعي بتاريخ المعرفة بل إن الشك معرفةً، فبقدر ما يزداد الشك يزداد اليقين وبقدر ما يغيب الشك يحل محله الجهل، فبالشك يتم تفعيل العقل فينتج تساؤلاته قصد الإمعان بالنظر إلى الموضوعات وتفحصها وفهمها والحكم عليها فهو ظاهرة ايجابية مهما كان نوعه سواء شكاً مؤقتاً تفرضه الضرورة المنهجية للتوصل إلى اليقين أو مطلقاً يهدم كل معرفة تدعي المطلقية، ولا يهمنا في هذا البحث أن تعرج عن أنواع الشك بقدر ما يهمنا هو تتبع كرونولوجيا تطور فكرة الشكية عبر تاريخ الفكر الفلسفي.

-إن الإرهاصات الأولى للشكية التي صاحبت المعرفة الفلسفية ظهرت بظهور النزعة السفسطائية في الفكر اليوناني مابين القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد بسبب تضارب المذاهب حول تحديد حقيقة الوجود، إذ كانت هذه الحقيقة تتجلى في الثبات عند "**برمنيدس**"، وفي الصيرورة والكثرة عند"**هرقليطس**"، وفي الذرات ذات الحركة الذاتية الأزلية عند "**ديمقريطس**"، وفي العقل كعلة محركة قائمة بذاتها عند "**انكساجوراس**" (Anaxagoras)(500-428ق م)، هذه التناقضات وغيرها هي التي أثارت شك رواد هذه النزعة على بناء موقف معاد لكل معرفة يعتقد أصحابها أنها يقينية[1]. ووصل الأمر بالسفسطائية إلى القول بفلسفة تقوم على الشك في كل معرفة مهما كان مصدرها، فقد نقل عن (**بروتاغوراس Protagoras)(490-421 ق م)** عبر الجملة المأثورة عنه "إن الإنسان هو مقياس كل الموجودات بالنسبة إلى وجودها وغير الموجودات بالنسبة إلى عدم وجودها"[2]. هذه العبارة القصيرة مثلت الثورة الفكرية للسفسطائيين في مختلف ميادين الفكر، وهي تعني بالنسبة لنظرية المعرفة أن الإنسان الفرد هو مقياس أو معيار الوجود فإن قال عن شيء إنه موجود فهو موجود بالنسبة له، وإن قال عن شيء إنه غير موجود فهو غير موجود بالنسبة له أيضاَ، فالمعرفة هنا نسبية أي تختلف من شخص إلى آخر بحسب ما يقع في خبرة الإنسان الفرد الحسّية، فما أراه بحواسي فقط يكون الموجود بالنسبة لي، وما تراه أنت بحواسّك يكون هو الموجود بالنسبة لك، وهكذا فالوجود بالنسبة لهم ينطلق من الذات ولا يكون موضوعياً، بل هو في تغير مستمر، يقول "**غورجياس**" **(Gorgias)(485-370ق- م)** " لاشيء موجود، وحتى لو كان موجودا فهو غير خاضع للمعرفة، وحتى إن كان خاضعاَ للمعرفة، فإن هذه المعرفة غير خاضعة للتناقل"[3].

يتبين من خلال هذا الطرح أن الحقائق ليست مطلقة بل متغيرة وتختلف تبعاَ للزمان والمكان وبذلك يتم التنكر للمحاولة التي قامت بها **الفلسفة الإيلية***[*] القائمة على محاولة إيجاد وجود موضوعي يمكن القول به، "فالإنسان يبقى عالقاَ دائماَ وسط شبكة من الأقوال والآراء وبالتالي هو مقياس كل شيء، فما يظهره الشخص من حقيقة فهي حقيقة له" [4].

---

[1] - زيتوني الشريف مشروعية الميتافيزيقية من الناحية المنطقية، تصدير محمود اليعقوبي، ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون الجزائر، (ب ط)، 2006م، ص 110 .

[2] - كونزمان بيتر و أخررن أطلس الفلسفة، تر، جورج كاتورة، المكتبة الشرقية، ش.م.ل .ط1 ،بيروت لبنان، 2001م، ص 35.

[3] - كونزمان بيتر وأخررن، المرجع نفسه، والموضع نفسه

[*] - نسبة إلى إيليا إحدى مدن أيونية بجنوب إيطاليا، تزعمها بارمينيدس الإيلي، و زينون الإيلي، و تقول بالعالم الواحد، له طبيعة لا تتغير، وهو إن كان واحد في العقل، فهو كثير في الحس .

[4] - أمين أحمد، وزكي نجيب محمود، قصة الفلسفة اليونانية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط،2 1945م، ص97.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فالشكية كعقيدة فلسفية انبثقت خلال أزمة المجتمع، وجاءت كرد فعل على المذاهب الفلسفية السابقة التي حاولت أن تفسر العالم الحسي عن طريق المجادلات التأملية، لكن الشك لم يظهر دائماً بهذه الصورة بل ظهر بصورة مختلف في تاريخ الفلسفة فهناك شك لا يستهدف الشك في حد ذاته بل يتطلع لبلوغ اليقين، وهو ما يسمي بالشك المنهجي يمثل مرحلة من مراحل منهج البحث.

ترجع أصول هذا الشك للفيلسوف اليوناني **"سقراط"(Socrates)(469-339ق م)** الذي انتهج جديداً في البحث هو المنهج المعروف" بالتهكم و التوليد". حيث يبدأ "سقراط" بإعلان جهله بكل شيء إذ أعرف شيئاً واحداً هو أني لا أعرف شيئاً"[1]، متخذاً من منهج التهكم وسيلة لتخليص العقل من الأوهام، وإرشاده نحو الحقيقة العقلية، ففي مرحلة التهكم يناقش محدثيه وكأنه يتعلم منهم فيسلم بأقوالهم حتى يستدرجهم لمعرفة الحقيقة، إذ يشكك في كل المعارف حتى يصل بمن يحاورهم إلى حالة عنيفة من الحيرة الذهنية، لا يدري بعدها كيف يجيب عن أسئلته، والواقع أن التهكم السقراطي لم يكن تهكماً بالمعنى السيئ الذي ينشد إثبات جهل الآخرين، وإنما هو تهكم قصد من ورائه إثارة التفكير والبحث عن الحقائق على أساس صحيح[2].

كما استخدم **أرسطو(Aristotle)(384-322 ق م)** ومدرسته المشائية الشك استخداماً منهجياً، والمعنى الذي أخده الشك عنده هو الفحص العلمي والفلسفي، حيث ربط بين الشك المنهجي والمعرفة الصحيحة، فالشك عنده ضروري في بداية كل بحث، لأن أية معرفة لا تكون صحيحة إلا بعد الشك فيها وتمحيصها بصورة دقيقة [3]، كان أرسطو يراجع بعناية ما قاله أسلافه معتقداً أن آراءهم متباينة ومختلفة تحتمل عناصر الحقيقة كما تحمل مواطن الخطأ، لذا كان يسعى إلى أن يجد حلولا معقولة للمشكلات المطروحة من خلال التعديل والتهذيب، فيضع بذلك حلولاَ متعددة أمام محاوريه ليصل معهم إلى معرفة مبرهن عليها عقلياً.

أدرك أرسطو أهمية الشك بالطريقة السقراطية موضحاً أن المعرفة تحتاج إلى نقد وتمحيص ولن يتأتي ذلك إلا من خلال الشك، مبيناً العلاقة بين الشك والمعرفة الصحيحة إذ يقول"إن كل حكم يصدره باحث ينبغي أن يسبقه نظر في الأسباب التي تؤيده المبررات التي تعارضه"[4]

اتخذ الخطاب ألشكي صورته الشاملة مع فلسفة **"بيرون"pyrrhon (365 – 275 ق م)**، وظهر هذا المذهب في الفترة **الهيلينسية*** الرومانية ومرت بثلاثة أطوار، الطور الأول: مثلته البيرونية التي امتدت مابين أواخر القرن الرابع إلى القرن الثالث قبل الميلاد، بدأ مع "بيرون" وانتهى بتفسير تلميذه **"تيمون" (Tymon)(320-230 قم)"**[5]، "هذا العصر كثرت فيه الاضطرابات وسادت الفوضى وضاع الحق والخير، وفسدت الأخلاق فوجد "بيرون" في الشك الوسيلة الوحيدة للحياة الهادئة. فطلب الطمأنينة والسعادة وسكينة النفس في تعليق الأحكام، وذهب إلى القول "بأننا لا نستطيع أن نعرف أي شيء من الأشياء، ومن

---

[1] - أمين أحمد، و زكي نجيب محمود، قصة الفلسفة اليونانية، مرجع سابق، ص107

[2] - إمام عبد الفتاح إمام، المنهج الجدلي عند هيجل، دار التنوير بيروت، الطبعة الثالثة،1967م ص54.

[3] - يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، مرجع سابق، ص117.

[4] -مصطفي النشار، نظرية العلم الأرسطية، دار المعارف، الطبعة الثانية، 1995م، ص92.

* - وهي الفترة الزمنية التي كان فيها تأثير الفكر الإغريقي القديم يغمر حضارات حوض المتوسط، وما وراءها.

[5] - الموسوعة الفلسفية المختصرة، نقلها عن الإنجليزية فؤاد كامل وآخرون، راجعها وأشرف عليها زكي نجيب محمود، دار القلم، بيروت، لبنان،(د ط) ص268

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثم... فمن الأفضل أن نتوقف عن الحكم "[1]، ففي نظره المعرفة لا هي حسية ولا هي عقلية، فالمعرفة الحسية تبين لنا الأشياء لا كما هي في ذاتها بل كما تبدو لنا، وكذلك المعرفة المتأتية من العقل هي في الواقع نتاج العادة ومادام الأمر كذالك فلا بد أن نتوقف عن الحكم، وبالتالي عن المعرفة، وفكرته الأساسية في ذلك تحقيق الخير الأسمى من خلال إنكاره لمعرفة دوغماتية تدعي المطلقية، "ووضع في ذلك نظرية قائمة على ثلاثة أبعاد، أولها أننا لا نستطيع أن نعرف شيئاَ عن طبيعة الأشياء، ويترتب عن ذلك بعد ثان يتمثل في واجب التوقف عن إصدار الأحكام، أما البعد الثالث فهو نتيجة تؤدي إلى حالة من اللامبالاة قصد تحقيق السعادة العقلية"[2]، وهو في ذلك يسير على خطى تقاليد المدرسة السفسطائية التي يؤكد أنصارها على نسبية المعرفة الإنسانية واستحالة البرهنة عليها بشكل يقيني ومطلق، فالشك البيروني شك إبستمولوجي، يمتنع فيه عن إثبات الحقائق أو نفيها. وقد "أترث تعاليم "بيرون" على بعض أتباع "أفلاطون" في الأكاديمية، فأسسوا المذهب الشكي الجديد، وهو يمثل الطور الثاني من المذهب البيروني، امتد من القرن الثالث إلى القرن الأول قبل الميلاد"[3]، "وكان على رأس هذا الاتجاه كل من "**واركيزيلاوس" Arcesilaus (315-241 ق.م)**، و"**كارل نيادس" Carneades (214-129 ق.م)**، أما الأول فقد أنكر إمكان حصول على معرفة أي شيء من خلال الحواس أو من خلال العقل، وأعتبر أن التميز بين الحقيقة وغير الحقيقة قائم على الاعتباطية لعدم وجود الوسيلة التي تمكننا من هذا التمييز وليست هناك أية علامة للحقيقة يمكن تميزها بين الإدراكات، ومهما كانت التصورات فإن الحكمة منها هي تعليق الحكم"[4].

"لقد تابع **"كارنيادس"** مذهب **"أركيزيلاوس"** في إنكاره للحقيقة وأكد أن المعرفة الصادقة مستحيلة"[5]، وأن الإنسان ليس قادراَ على الإطلاق للوصول إلى معرفة الحقيقة، و"كان **"كارنيادس"** أكثر الشكاك رسوخاَ في هجومه على القطعية اليقينية، بحججه التي أقامها ضد إمكان القول بأن الانطباعات الحسية يمكن التميز فيها بين الباطل والصحيح، وضد القدرة على القيام بأية عملية عقلية، لأنها مادامت قائمة على الإحساس فهي تفتقد إلى اليقين الذي يفتقده الإحساس"[6]، و"النتيجة التي توصل إليها هو عدم القدرة على إمكانية أية معرفة على الإطلاق، وبالتالي لا يمكن إصدار أي حكم، بل يعلق تعليقاَ بغير شروط .

والطور الثالث تمثل في البيرونية الجديدة عند "**ينسيديموس"(Anesidemus) (310- 241 ق م)** و"**أجريبا" (Agrippa)(214-169 ق م)**،التي ظهرت في القرن الأول للميلاد"[7] فقام **"ينسيديموس"** بوضع المذهب وضعاَ علمياَ مدعماَ موقفه بحجج لتبرير تعليق الحكم، حيث أكد متفقاَ مع "بيرون" على عدم معرفة التكوين الحقيقي للأشياء، وأن أية فكرة مهما كانت يمكن أن تواجه مجموعة من الاعتراضات، لهذا لا يمكننا أن نقرر أو نحكم على الأفكار بأنها صحيحة أو باطلة"[8], وجاء "**أجريبا**" بعد "**طينسيديموس**" ليقدم حججه الخاصة بشأن استحالة قيام المعرفة الإنسانية وامتناع وجود اليقين، وانعدام إمكانية وجوده، ولقد لخص الحجج التي أعتمد عليها المذهب البيروني لتبرير دعوته القائلة باستحالة المعرفة في أربعة حجج هي.

---

[1] - روزنتال- يودين، الموسوعة الفلسفية، مرجع سابق، ص97.
[2] - زيتوني شريف، مشروعية الميتافيزيقا من الناحية المنطقية، مرجع سابق، ص 113
[3] - الموسوعة الفلسفية المختصرة، مرجع سابق، ص 268.
[4] – يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط5، 1970م ص236.
[5] - روزنتال - يودين:الموسوعة الفلسفية،ص375 .
[6] - الموسوعة الفلسفية المختصرة مرجع سابق ص269 .
[7] - الموسوعة الفلسفية المختصرة مرجع سابق ص268
[8] - عزت قرني: الفلسفة اليونانية حتى أفلاطون, عالم الكتب للطباعة و النشر و التوزيع , مصر (ب ط) 1995 م ، ص457 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

1 – اختلاف المواقف الفلسفية وتناقضها جعلها مضطربة ولا يقينية.

–2 استحالة تأكيد قضية ما بصورة يقينية، لأن كل قضية تستمد يقينها من قضية أخرى وهكذا إلى ما لا نهاية.

3 – عدم إمكانية إدراك الشيء بذاته تحتم علينا أن نستدل عليه بغيره، فيبقى نتيجة لذلك كل شيء مجهولا.

4 – الاعتقاد بوجود مبادئ يقينية لا يرقى إليه الشك، محاولة باطلة لأننا لا نستطيع أن نفترض مبادئ تناقضها"[1].

في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث بعد الميلاد، كتب أحد أتباع **"أنيسيديموس" امبريقوس"(Sextus Empricus)(200-250م)** موسوعة للمذهب الشكي جمع فيها كل ما قدمته المدرسة أخبار الشكاك وحججهم، وكيف أنهم ركزوا همهم جميعاً على تفنيد الموقف القطعي في كل صوره"[2]، وهو في ذلك لم يختلف عن سابقيه فأكد على استحالة الوصول إلى معيار للحقيقة، واستحالة البرهنة على أي شيء، والأساس المشترك لهذه الحركة هو الهجوم الإبستمولوجي على جميع الفلسفات التي كانت دوغماتية: أي التي زعمت أنها قد كشفت الحقيقة. فلا يمكن معرفة الأشياء بصورة يقينية فإدراكنا للعالم الخارجي كما تقدمها لنا الحواس تتم بصورة مختلفة ومتناقضة، ولا يوجد معيار نميز به الانطباعات الصحيحة من الانطباعات الباطلة، لا في العقل ولا في الحكم، لأنه لا توجد قاعدة للحكم الصحيح، و ليس ثمة معيار للمعرفة، إذ أن الظواهر لا تقدم دليلاً يقينياً عن أي شيء إلا نفسها، لذا ينبغي الإمساك عن الاستدلال المستند إلى صدق الظواهر أو بطلانها، هذا هو المنطلق الأساسي التي اعتمدته فلسفة "بيرون"، وهي في ذلك تتبنى الشك المذهبي الذي يلغي كل معرفة، فالشك هنا هو الوسيلة والغاية معاً، وهو الشك المطلق.

أما في العصور الوسطى فالنزعة الشكية ظهرت عند **القديس"أوغسطين"(354-440م)** مؤكداً أن البحث يحتاج إلى منهج، أي الطريق الذي نستطيع بواسطته أن نصل إلى اكتشاف الحقائق، والتي يكون منبعها الذات، وهذا المنهج يستدعي أن نبدأ بالشك، فقال "أوغسطين":"إن الناس مختلفون في الحياة، والتذكر، والعلم، والإرادة، والحكم، أهي تنتسب إلى الهواء أم إلى النار أم إلى الدم؟ ولكن هؤلاء جميعاً متفقون على أنهم يشكون، فهناك إذن حقيقة يقينية هي الشك، وهذه الحقيقة تقتضي أيضاً حقائق أخرى مرتبطة بها: وهي الحياة والتذكر والعلم والحكم والإرادة"[3].

يريد "أوغسطين" أن يبين لنا أهمية الشك في الوصول إلى المعرفة، وفي إثبات الذات، ذلك أن الذي يشك يعلم أنه يشك، وهو بذلك يريد اليقين، لأن الغرض من الشك هو الوصول إلى اليقين، والذي يشك يحكم بأن الحقائق لا يمكن أن تؤخذ مباشرة، بوصفها شيئاً يقينياً، والشيء اليقيني الوحيد بالنسبة له هو أنه يشك، وأن ذاته موجودة من خلال هذا الشك، ومن هنا يعرف الإنسان ذاته والحقائق الخاصة به، أما الأشياء الأخرى الخارجة عن الذات لم يستطع معرفتها، ولكي ينتقل الإنسان من معرفة العالم الداخلي الذاتي إلى معرفة العالم الخارجي، ولتحقيق ذلك لابد من البحث عن طريق آخر. وهنا فرق "أوغسطين" بين عالم الحس وعالم العقل، ورفض القول بأن عالم الحس باطل، كما ذهب إلى ذلك

---

[1] - زيتوني شريف، مرجع سابق، ص 114.

[2] - عزت قرني، الفلسفة اليونانية حتى أفلاطون، مرجع سابق،ص 457.

[3] - بدوي عبد الرحمن، فلسفة العصور الوسطى، دار القلم بيروت، لبنان، ط3،1979 م، ص23.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الشكاك، بل اعترف به كوسيلة للوصول إلى المعرفة، لكنه غير كاف، لأن المعرفة الحسية في نظره تؤدي إلى الإيمان وليس إلى العلم، والمعرفة التي تؤدي إلى العلم هي معرفة الحقائق الأزلية الأبدية، والتي هي موجودة بطبيعتها في النفس الإنسانية، والتي تؤدي بالإنسان لمعرفة الله، فالمعرفة عنده تبدأ بالشك لتصل إلى اليقين، فالشك عنده مجرد وسيلة للمعرفة.

إذا كان للشكية وجود عند فلاسفة اليونان وفلاسفة العصور الوسطى فهل لهذا المذهب وجود عند العرب المسلمين؟

ظهرت بوادر هذا المذهب عند شيوخ المعتزلة، ذلك أنهم اشترطوا وجود الشك كمقدمة ضرورية لصحة كل معرفة، وكان من بين المتمسكين بالشك عندهم هو **"إبراهيم بن سيار النظام"(ت 231 ه)**، الذي رفع من قيمة الشك إلى حد قربه من موقف الفلاسفة، وهو القائل:"لم يكن يقين قط حتى صار فيه شك، ولم ينتقل أحد من الاعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما شك"[1]. كما أشار أحد أقطاب المعتزلة، وهو **"أبو الهذيل العلاف" (ت235 ه)** إلى أهمية الشك إذ قال: "إن أول ما يجب على الإنسان من حيث هو مكلف تمحيص ما يعتقد وتميز الظن من الحق وذلك بإعمال العقل ويقظة الفكر، فهو يحذر من الإيمان لمجرد التقليد ... يجب على كل فرد الشك في معتقداته حتى يصل بعقله إلى العلم الذي عنده تسكن النفس، ولم يكن يقين قط إلا وسبقه الشك"[2].

تتضح لنا أن النزعة النقدية لدى المعتزلة كانت قائمة على الشك فقاموا باستحسانه ودعوا إلى التعرف عليه ودراسته، ومن بين الذين تأثروا بهذه الفكرة **"أبو عثمان الجاحظ" (775-769م)**، الذي كان تلميذاَ **"لأبن سيار النظام"**[*]، فقد كان منهجه في البحث العلمي يقوم على الشك والتجربة، وكان يرفض قبول فكرة دون مناقشتها والوقوف على صحتها، فكان الشك أقرب إليه من اليقين في البحث، والعلم لا يدرك الحقيقة إلا إذا مارس الشك، فجعل من الشك أساسا لليقين، إذ قال: "فاعرف مواضع الشك، وحالاتها الموجبة لتعرف بها مواضع اليقين"[3] فهو في ذلك يدعو إلى الشك عند النظر حتى تتبين وتتضح الأمور التي ننظر فيها.

يعتبر**"أبا حامد محمد الغزالي"(1058 – 1111 م)** أحد أحمد أقطاب المذهب الشكي في تاريخ الفلسفة الشكية، كان **"بروتاغورس"** قد شهد اختلاف المذاهب الفلسفية وتباينها، فإن **"الغزالي"** عايش مثل هذا الوضع أيضاَ مع المذاهب والفرق الكلامية الإسلامية، والشك بالنسبة إليه هو الطريق الذي يؤدي إلى الحق، ولذلك يقول: " فمن لم يشك لم ينظر، و من لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقي في العمى والضلالة "[4] فاعتبر الشك أولى مراتب اليقين.

لقد سلك **"الغزالي"** طريق الشك بحثاَ عن اليقين بعد أن حدثت له أزمة روحية، كان من نتائجها أن شك في اعتقاداته الموروثة. وهذا الشك كان أول دافع له إلى النظر العقلي الحر. فاختلافات الفرق وتباين أفكارها، دفعت "الغزالي" إلى دراسة المذاهب الفكرية المختلفة لغرض معرفة مدى صدقها، فهو يعتقد أن أي انتماء فكري إلى مذهب

---

[1] - أحمد محمود صبحي، في علم الكلام، دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين، المعتزلة، دار النهضة العربية، بيروت، ط 5، 1985 ص221.

[2] –أحمد محمود صبحي، المرجع نفسه، ص203- 204

[*] -هو إبراهيم بن سيار النظام،توفي سنة 231هنأحد أبرز رجال المعتزلة، سمي بالنظام لأنه كان يشتغل في شبابه بنظم الخرز، حرفة يعيش في سوق البصرة، تتلمذ على يده الجاحظ، حيث قال عنه،إن كان صحيحا أن في كل ألف سنة يظهر رجلاَ لا نظيرله فهو أبو إسحاق النظام .

[3] - عبد الشهيد صموئيل، الروح العلمية عند الجاحظ، دار الكتاب لبنان، بيروت (بط)، 1975م، ص41

[4] - بدوي عبد الرحمن، دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي، مكتبة الأنجلو المصرية ،ط 2،1967م، ص189.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

معين ينتج عن التقليد وليس عن اقتناع، فالبحث الهادف هو ذلك البحث الذي يوصل صاحبه إلى الحقيقة، ويكون نابعاً من تفكير مستقل بعيداً عن كل انتماء مذهبي يدفعه للتعصب، وهو يقول: " إنما يرتفع حجاب التقليد بأن يترك التعصب للمذاهب ... فإن غلب عليه التعصب لمعتقده ولم يبق في نفسه متسع لغيره صار ذلك قيداً له وحجاباً إذ ليس من شرط المريد الانتماء إلى مذهب معين أصلاً"[1].

يتضح أن "الغزالي" يدعو إلى البحث عن الحقيقة من منطلق الذات المستقلة الحرة، التي تبحث دون تعصب مذهبي يعتقد أنصاره أنهم يمتلكون الحقيقة، يحاول "الغزالي" من خلال هذا المنهج نقد المكتسب بواسطة تقليد السابقين دون فحص، فيسعى إلى اختباره بواسطة آليات التفكير الصحيح، حتى الكشف عن المعارف الباطلة، والتي تنتقل عبر الأجيال كمعارف صادقة ومطلقة." فالشك عنده قضية منهج في التفكير وأسلوب بحث يمكن بواسطته الوصول إلى الحقيقة، قائم على النقد الهادف إلى تنقية الشوائب و الأغاليط و كشف حقائق الأشياء، الغرض منه مراجعة مصادر المعرفة ونقدها من جديد، فأخذ يمحص ويختبر العلوم سواء تلك المكتسبة بالحواس أو بالعقل، ويبدأ دراسته الشكية في عالم الحس فيقول فيها: "من أين الثقة بالمحسوسات، وأقواها حاسة البصر، وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك وتحكم بنفي الحركة؟ ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف أنه متحرك، وأنه لم يتحرك دفعة واحدة بغتة، بل على التدرج ذرة حتى لم يكن له حالة وقوف، وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيراً في مقدار دينار، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار"[2].

يتبين لنا أن "الغزالي" يفقد الثقة بالمحسوسات، ويشك في كل معرفة صادرة عنها، وهو لم يكتف باختبار معطيات الحس بل انتقل إلى العقليات، فالعقل قوة عارفة ومصدر التميز بين الصواب والخطأ في الأشياء المتعلقة بالحواس، وعلى الرغم من ذلك لم يسلم من التشكيك في ما يقدمه من معرفة، فقد يخطئ العقل في حكمه، وإذا أخطأ العقل فلا يمكن أن يكون مصدر ثقة كذلك، وقد أثار "الغزالي" حواراً خيالياً مع نفسه تخاطبه فيه المحسوسات: "بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات ؟ وقد كنت واثقاً بي فجاء حاكم العقل فكذبني، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر في تصديقي. فلعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر".[3] وعليه شك "الغزالي" في جميع مصادر المعرفة الإنسانية الحسية منها العقلية، بل امتد شكه إلى الوجود فتساءل عن الواقع. كيف يمكن معرفته؟، وما هو الموجود فيه؟، ولم يستطع إيجاد حل للشك الذي يشمل كل الموجودات في هذا العالم، لأن غرضه في ذلك هو الوصول إلى الحقيقة فيوظف الشك ليكتشف الأخطاء المعرفية التي يكتسبها الباحث من مصادر غير موثوقة، لذلك يكون الشك عنده موجهاً نحو المنهج، ليس للمعرفة ذاتها. فالشك كما يتصوره "الغزالي" منهج يسعى لتأسيس المعرفة على أسس يقينية، يتم الوصول إليها بواسطة التفكير النقدي الذي يساعد في الكشف عن مزالق الأخطاء المعرفية قصد تمحيصها، فهو يدعو من خلال الشك إلى إعادة التفكير فيما كنا نعتقد أنه صحيح، وهذه العملية هي مراجعة نقدية وتقييم جديد لمصادر المعرفة سواء أكانت حسية أم عقلية أم مبنية على التقليد، وعليه يمكن القول أن الشك عند المسلمين كان شكا منهجيا، ولم يكن شكا مطلقاً.

---

[1] - الغزالي محمد أبي حامد، إحياء علوم الدين، ج 3 ،دار الفكر، بيروت (ب ط)، ص75

[2] -الغزالي محمد أبي حامد، المنقذ من الضلال، تقديم على بوملحم ،دار مكتبة الهلال بيروت، ط1، 1993م، ص21 .

[3] - الغزالي، المرجع نفسه، ص22

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إذا كان "الغزالي" يمثل القطب الثاني في تاريخ الشكية، فإن "ديكارت" يمثل بداية المرحلة الحديثة(1596م-1650م)، وهو أول من طور الشكية وفق منهج علمي جديد مستقل تماماً عن النظريتين القديمة والوسطى، فكان من أكبر الفلاسفة الذين ساهموا في وضع أسس الشك المنهجي، وكان هذا الشك تمهيداً ضرورياً للمنهج عنده"[1]. وقبل أن نتطرق إلى معنى الشك المنهجي عند "ديكارت"، فإن الفترة نفسها عرفت شكا مطلقاً سببه ظهور النزعة العقلية التي زعزعت الإيمان، وذلك مع بداية عصر النهضة في أوروبا مع **"إرازاموس" (Erasmus)(1469م-1536م)** الذي انتقلت إليه نصوص "سكتوس" مند عام 1441م فهاجم اللاهوت المسيحي"[2]، فتعرضت العقيدة المسيحية إلى الرفض، والكتاب المقدس إلى النقد، فقام نفر من الشكاك بالدفاع عن العقائد المسيحية، والغرض من ذلك محاولة تثبيت الإيمان من خلال الشك في العقل والمعرفة الإنسانية بصورة مطلقة، والتأكيد على أن الدين وحده يوفر لنا اليقين، ويرشدنا إلى طريق السعادة، وكان على رأس هؤلاء الشكاك **"ميتشيل دي مونتيني" (Michèle de Montaigne)(1532م -1592م) و"بييرشارون" (Pierre Charron)(1541م-1603م).** "أما "مونتيتي" الفيلسوف الأخلاقي قام بعرض نزعته الشكية للدفاع عن الدين المسيحي من خلال سؤاله المستمر" ماذا نعرف؟".

وبخلاف اللاأدرية * فالشك عنده لا ينكر قابلية العالم للمعرفة، وإن كانت تؤكد حق الإنسان في التشكك في كل شيء"[3]. فاعتبر العقل أداة محدودة لا يمكنه الوصول إلى المعرفة الصحيحة لأنه يعتمد على الحواس كلية، وهي بمثابة المصادر الأساسية للمعرفة العقلية. إن الحواس خادعة في تقاريرها، ومحدودة في مجالها، ومن تم لا يمكن الاعتماد على العقل، ولا الركون إليه، ولا الثقة به، وليس هناك علم، وإنما فروض لعقول مغرورة، ولا شيء يمكن إثباته على التحقيق، وخير الفلسفات تلك التي تعلن أننا لا نعرف شيئاً، فتساءل عن الطبيعة، وماذا نعرف عنها؟، فلقد خالف **"كوبونيك" "بطليموس"**، ولكن من يدري؟ لعل رأياً ثالثاً يظهر في مدى ألف عام فيقلب الرأيين، سقط العلم القديم، فلم لا يسقط العلم الجديد بدوره؟. نحن نتوهم أننا نعلم حين نستخرج نتائج من مبادئ، ولكن ما قيمة هذه المبادئ؟. إن آلات العلم عاجزة عن توفير اليقين[4] ، فهو يؤكد أن مهما علمنا وعرفنا، فإن ذلك لا يوصلنا إلى الحقيقة.

أما **"شارون"** فقد تتبع خطوات أستاذه، مؤكدا أن كل معرفة تنبع من الحواس هي معرفة خاطئة، وأكد على أن الحقيقة ليست من شأن البشر، بل هي من شأن الخالق، ويجب على الإنسان أن يتشكك فيما يؤمن به الناس من أراء، وأن يفقد الثقة في النفس التي فطرت على الشر، والعقل الذي فطر على الجهل"[5]. ويبقى اليقين الوحيد في نظره هو ما يأتينا بواسطة الإيمان والدين لأن هذا الأخير المصدر الضروري لإقامة النظام والأخلاق.

أما **"فرانسيس بيكون" (1561م-1626م)** فقد انتهج أسلوبا آخر في الشك، حيث وجه "بيكون" نقداً شديداً لفلسفة العصور الوسطى، ولأتباع منهج "أرسطو" في دراسة الطبيعة، ودعا إلى استخدام منهج استقرائي في

---

[1] - جان فال، الفلسفة الفرنسية من ديكارت إلى سارتر، ترجمة، فؤاد كامل، مراجعة فؤاد زكريا، دار الثقافة القاهرة،(ب ت)،ص9 .

[2] - محمد زيدان، نظرية المعرفة عند مفكري الإسلام وفلاسفة الغرب المعاصرين، دار النهضة العربية، بيروت ط 1، 1979م، ص33 .

* - اللاأدرية (Agnosticisme) ، تطلق على المذاهب الفلسفية التي تنكر قدرة العقل على المعرفة، ويستحيل على الإنسان إدراك الحقيقة، فاللاأدريين يقولون بالتوقف في الحكم على أي شيء لأنهم يشكون في كل شيء.

[3] - مكاوى عبد الغفار، لم الفلسفة، منشأة الناشر المعارف، الأسكندرية،(ب ط)، 1981م، ص151

[4] - يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم بيروت لبنان (ب ط) (ب ت)، ص29.

[5] - ولد ديورانت ، قصة الحضارة ترجمة،ج3, محمد أبو على أبو درة، مراجعة على أدهم، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، (ب ط) (ب ت)،ص286.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

البحث للوصول إلى المعرفة اليقينية بعد أن شك في الطرق السابقة، ويقصد بها طرق العقلية القائمة على الاستنتاجات البديهية، فهو يقول "يجب أن يخضع كل قول مهما كان مبعثه للملاحظة والتجربة، فإنك لو بالإيمان ببعض الحقائق فينتهي بك الأمر أخيراً إلى الشك، وإذا بدأت السير بالشك والارتياب فلا بد أن تنتهي إلى الحق واليقين"[1]، وهذا الطرح وجد له صدى مع دراسات**"جاسندي"*** (Gassendi)(**1592م-1655م**) حيث تمكن من تقديم عرض للشك مخالفاً السابقين له حين رأى أن المخرج من الشك ليس رفض اللاهوت، ولا التحمس له بقدر ما هو التوجه نحو الدراسة التجريبية العلمية لاكتشاف طبيعة الأشياء"[2]، ومن هنا نجد أن فلسفة الشك عرفت منعطفا آخر مع "جانسدي" فحول الشك من المجال الدراسات الفلسفية إلى مجال الدراسات العلمية التجريبية، حيث أدرك حقيقة تتمثل في أن الشك في المجال التجريبي يعود بالنفع، لأنه يدفع بمعرفة حقائق الطبيعة، حينما نتعامل معها بواسطة الملاحظة والتجربة، فيصير الشك وسيلة علمية برجماتية، هذا ما أشار إليه **"جون لوك" (1632م-1704م)** عندما رفض الأفكار الفطرية، و نادي بالتسامح الديني، وقال:" إن العقل يولد صفحة بيضاء تكتب عليها التجارب بصورة تدريجية، فالعقل قدراته محدودة ومرتبطة بانطباعات حسية وتركيباتها".[3] وطالما أن العقل صفحة بيضاء فالناس يولدون متساوين في قدراتهم على المعرفة والتي تكون نسبية، لأن المعرفة الإنسانية محدودة، وبالتالي فإن الحقيقة مسألة نسبية أيضاً، فحدود المعرفة الإنسانية تقود إلى احتمال الخطأ.

أما **"جورج بار كلى" (1685م– 1753م)** أخذ بنظرية مذهب الشك القائلة: "إن كل ما نعلمه هو مجرد أفكار لا صلة لها بالحقيقة الواقعية، فهو يشك في قيمة العلم من الناحية النظرية ومعانيه المجردة، ويؤكد أن العلماء في حكمهم على الشيء يخلطون بين ما هو عقلي، وما هو خيالي، ويقبلون المبادئ النظرية، وهي غير معقولة"[4]، فالنظرية تقول دائماً أكثر مما تأتي به التجارب مهما تعددت، وتكررت،فهي محمل بحمولة ثقافية وايديولوجية تنعكس على ما هو ملاحظ تجريبياً، "فالأفكار تنتقل عبر التواصل والتداعي والإيحاء، ولا تأتي كل مكوناتها من الخبرة التجريبية، حيث أن مسلمات مضمرة تتسلل إلى الخطاب العلمي، عبر سبل لا تخضع لأية مراقبة عقلية واعية"[5].

فإذا كان **"بيكون"** يمثل الاتجاه التجريبي فإن **"ديكارت"** يمثل النزعة العقلانية. ولقد أشرنا سابقاً أن ظاهرة الشك في العصر الحديث اقترنت بالديكارتية، فالشك هو المرحلة الأولى في فلسفة "ديكارت"، "فالبحث عن الحقيقة يحتاج من الإنسان أن يضع الأشياء جميعاً موضع الشك بقدر ما في الإمكان"[6]. فهو يرفض كل ما يثبت بصفة مطلقة، ليس معناه أنه يعلق الحكم كما فعل اللاأدريون، بل غرضه في ذلك اختبار المعارف حتى إذا ما صمدت اطمأن إليها، وتعلق بها، ويؤكد على ذلك قائلاً: " وما كنت في ذلك مقلداً الريبيين الذين لا يشكون إلا للشك، ويتظاهرون دائماً بالتردد، لأن غرضي كله كان على

---

[1] - زكي نجيب محمود، قصة الفلسفة الحديثة، مطبعة مجد للتأليف والترجمة و النشر القاهرة(ب ط)، (ب ت)، ص68.

* - عالم فرنسي، عمل أستاذا جامعياً للبلاغة والرياضيات، وأشتغل بعلمي الفلك والطبيعة، ويعتبره البعض مؤسس المادية الحديثة.

[2] - الموسوعة الفلسفية،نشر: إدواردز، ج5 "مذهب الشك"، ص449.

[3] - أبودية أيوب، العلم والفلسفة الأوروبية الحديثة من كوبرنيك إلى هيوم، دار الفارابي،بيروت، لبنان ط1 2009م، ص224 .

[4] - زقزوق حمدي محمود، دراسات في الفلسفة الحديثة، دار الفكر العربي،ط 3 القاهرة، 1993م، ص59.

[5] - عوض عادل، الإبستيمولوجيا بين نسبية فيرابند وموضوعية شالمرز، مرجع سابق، ص32.

[6] - ديكارت، مبادئ الفلسفة، تر، د عثمان أمين، مكتبة النهضة المصرية(ب ط)، 1960م، ص86.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عكس ذلك، لا يرمي إلا إلى الظفر باليقين، وإلى الإعراض عن الأرض المتحركة والرمل في سبيل العثور على الصخر الصلصال"[1].

يبين لنا "ديكارت" من خلال هذا القول أن الشك عنده غرضه الوصول إلى اليقين، هذا يجعل شكه شكاً منهجياً، "فهو شك في كل شيء، شك في الحواس، ذلك أنه جربها فوجدها خادعة، ومن الحكمة ألا نثق في من يخدعنا، وشكه امتد إلى عالم الأفكار التي تواجهنا في عالم اليقظة، لأن الإنسان يرى في أحلامه أشياء لا حقيقة لها خارج فكره، من هنا يتساءل ويقول: من يدري لعل حالة اليقظة ليست إلا نوماً ؟ كما شك في الأدلة الرياضية، والتي كان يعتقد أنها واضحة بذاتها، إلا أنها معرضة للخطأ من خلال الأغاليط التي يمكن أن تتسرب إليها، لذلك كانت القاعدة الأولى من قواعد المنهج الديكارتي هي: "ألا أقبل شيئاً ما على أنه حق ما لم أعرف يقيناً أنه كذلك، بمعنى أن أتجنب بعناية التهور، والسبق إلى الحكم قبل النظر، وألا أدخل في أحكامي إلا ما يتمثل أمام عقلي في جلاء وتميز، بحيث لا يكون لديَّ أي مجال لوضعه موضع الشك"[2]، يبين ديكارت أهمية الاستنباط العقلي في الوصول إلى اليقين بعض الشك في المعرفة وهذا خلافاً للاستقراء القائم على الاحتمال.

إذا كان "ديكارت" يمثل بداية الشك في العصر الحديث، فإن ما يميز "**دفيد هيوم**" **(1711م-1776م)** في تاريخ الشكية كونه أول تجريبي يطور الفلسفة الحسية التجريبية إلى فلسفة شكية، ويدور تفكيره في تحليل المعرفة على الحواس، كما تبدو للوجدان من دون أي إضافة عقلية، وهو في ذلك يسير في اتجاه معاكس للنزعة العقلية كما هي عند "ديكارت" و"الغزالي"، فالتجربة عنده هي مصدر كل معرفة، وما يقال عنها معرفة عقلية ترجع في أصولها إلى الحواس، وذهب بالمذهب التجريبي إلى نتيجة منطقية ممثلة في درجة الشك الذي ينكر به كل الحقائق، ويعبر "هيوم" عن فكره الشكي قائلاَ:" إنه حتى عندما تكون لدينا خبرة بعمليات السبب والأثر، فإن خلاصتنا المستمدة من تلك الخبرة لا تتأسس على التعليل ولا على أي تقدم للفهامة"[3].

يتطرق "هيوم" في شكيته إلى نقد نظرية العلية كما يتصورها العقليون، "الذين اعتقدوا أن العلية مبدأ قائم في العقل، وأنه مبدأ ضروري وفطري، وأن لدينا استعدادا طبيعياً للاعتقاد به حين ينشأ في الخبرة ما يكشف عنه، وهو فينا مستقل عن الخبرة الحسية، وإن لم نحس به إلا بعد مواجهة تلك الخبرة"[4]. وبهذا المعنى يكون مبدأ العلية مبدءا قبلياَ. فرفض "هيوم" هذا الطرح القائل بالتلازم المنطقي بين العلة والمعلول، على أساس الضرورة الآتية من العقل فطريا وقبليا، ويؤكد أن العلية لا تبنى على أساس الضرورة العقلية أو المنطقية، فليس بمجرد تحليل العلة يتضمن بالضرورة وجود المعلول كأحد عناصرها، أو أن تحليل المعلول يتضمن علته، لأن المعلول متميز عن علته، ولا يمكن القول بأنه متضمن فيه، فحادثة العلة متميزة عن حادثة المعلول، وعليه يمكن منطقياَ إثبات إحداهما، ورفض الأخرى، وهنا نجد أن العلاقة لا تكشف عن ضرورة منطقية، ويصبح القول بأن لكل حادثة علة، مرده التجربة الحسية والانطباعات التي نحصل عليها من العالم الخارجي، فهذا التصور يعبر عن علاقة بين حادثتين

---

[1] - ميمون الربيع، مشكلة الدور الديكارتي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1982م، ص27.

[2] - ديكارت، مقال عن المنهج، ترجمة، محمود محمد الخضيرى، مراجعة، محمد مصطفى حلمي، الهيئة المصرية العامة للكتابة،ط3، 1985م، ص190

[3] - هيوم دافيد، مبحث في الفاهمة البشرية، ترجمة موسي وهبة، دار الفارابي، بيروت- لبنان،ط1، 2008م، ص 58.

[4] - زيدان محمود فهمي، الاستقراء والمنهج العلمي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ،2002 م ص143 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

متلازمتين تلازماَ متكرراَ، وهذا التلازم المتكرر يؤدي بعقولنا إلى تكوين عادة.[1] هذه العادة تنتج عن التتابع المتكرر المنتظم لهذه الحوادث الواقعة في إدراكنا الحسي، وهذا التتابع يؤدي إلى تكوين عادة عقلية عن هذا الارتباط، لدرجة أننا حين نرى حادثة ولتكن "أ" فنتوقع في المستقبل أن تتبعها حادثة "ب"، فالضرورة هنا تجريبية أو نفسية، ولكن هذه العادة لا تمثل برهاناَ على أن لكل حادثة علة في العالم الفيزيائي أو النفسي، فتسير الانطباعات الحسية مستقلة بدون حاجة إلى العلة، ويصبح عالم الانطباعات هو ما نعرفه، فيتحول إلى عائق يحجب عنا عالم الأشياء كما هو في ذاتها، ويتحول عالم الظواهر الذي يمثل عالم المحسوسات ذاته إلى مجرد عالم من الانطباعات الذاتية يمنعنا من الوصول إلى هذا العالم المحسوس[2] .

"فالعلية في الطبيعة تكون على غير ما نتصوره، فلا نستطيع أن نحكم جازمين أن الهيدروجين والأوكسجين يكونان الماء، لأن الكثير من الوقائع التي نشاهدها لا تتغير بالتجربة، وبالتالي كلما نصادف العلة، فإنه بالضرورة ينشأ لدينا نزوع شديد، في ترقب ما نسميه بالمعلول الذي لا يعدو عن كونه مجرد حدث، يأتي دائماَ بعد أعقاب الحدث الأول لا غير، فلا يمكن القول إن مجرد تحليل العلة يتضمن وجود المعلول كأحد عناصرها"[3] ليست هناك قوانين علية، ولا نظريات تفسيرية، ولا حتى نظام للطبيعة، بعبارة أخرى يرى "هيوم" أنه ليس باستطاعتنا أن نحصل على معرفة التركيب العقلي، حيث أن علاقة العلية لا تكشف عن ضرورة منطقية .بالنسبة إلى الحقيقة الكاملة، التي تكون وراء الواقع الموضوعي، فيقول: "إن عقل الإنسان ليس إلا أفكاره متتابعة متعاقبة وأنه لا يجوز لنا أن نقطع برأي يقين، لأن كل رأي لنا إن هو إلا احتمال وترجيح قد يظهر ما ينقضه وينفيه"[4]، ويضيف "هيوم" موقفاَ جديداَ لا يزال تأثيره طاغياَ على الفلاسفة والعلماء حتى اليوم، ويتمثل في الشك في جميع القوانين العلمية وفي المنهج الاستقرائي"، وهذا بسبب عدم القدرة على تبرير عمومية القوانين. فالمشكلة التي أثارها "هيوم" تبين أنه ليس لدينا تبرير من الخبرة الحسية، يعد بمثابة معيار تجريبي، يقرر صدق القوانين العلمية التي نتوصل إليها من عدد محدود من الوقائع، أو الحوادث التي لوحظت في الماضي أو الحاضر، فلا يمكننا تقرير أن المستقبل سيكون على غرار الحاضر والماضي، حيث لا يوجد لدينا برهان لإثبات الاطراد تجريبيا"[5].

على الرغم من أن "هيوم" يؤكد على أن كل معارفنا تنبع من التجربة الحسية، غير أن الانتقال من الحسي إلى العقلي لا يستند إلى أي برهان مقنع، فقيام الاستقراء يفترض نظاما في الطبيعة، وهذا ما لا يمكن إثباته بواسطة الاستدلال فالقضية التجريبية القائلة: "الشمس سوف تشرق غداَ " يمكن إنكارها دون تناقض، لأن "الشمس سوف لا تشرق غداَ " ليست أقل قبولاَ لدى العقل من إثبات" أن الشمس سوف تشرق غداَ".[6]

لا نستطيع إذن أن نبرهن على كذب القضية الأولى ولا على صدق القضية الثانية لأن الأمر مجرد عادة رسخت في الأذهان بدون برهان، يجعل التطابق بين النظرية العلمية والخبرة تطابقاَ حقيقياَ.

---

[1] – ماهر عبد القادر، مشكلات الفلسفة، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، بيروت، لبنان (ب ط)، 1985م، ص19.

[2] - محمد زيدان، نظرية المعرفة عند مفكري الإسلام وفلاسفة الغرب المعاصرين، مرجع سابق، ص 40 .

[3] - ماهر عبد القادر، فلسفة العلوم، المنطق الاستقرائي، ج1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت،(ب ط) 1983م، ص117

[4] - نجيب زكي محمود، قصة الفلسفة الحديثة,لجنة التأليف والنشر،القاهرة(ب ط) (ب ت) ص267.

[5] - ماهر عبد القادر، مشكلات الفلسفة، مرجع سابق،ص 23 .

[6] - البعزاتي بناصر، الاستدلال و البناء، مرجع سابق، ص 199 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فالمعرفة التي تتأسس على العادة لا يمكنها أن تؤسس للعلم، لأنها معرضة للتكذيب في أي لحظة، لذا لا سبيل للحديث عن معرفة علمية مبنية على الشك، على الرغم من الاعتقاد بوجود عالم طبيعي وبحوادث طبيعية قائمة على الاطراد، الذي يعتبر أساس عمومية القوانين العلمية، لكن لا يمكن الدفاع عن هذا الاعتقاد في إطار تعوًد، إذن بمثل هذا الطرح يبرهن "هيوم" على إقصاء الحقائق، وكل ما هو مطلق من الفلسفة، بعد أن سلم فقط بالمذهب الحسي القائم على الظاهرية التي ترد المعرفة إلى ظواهر، لا تربط بينها سوى علاقات تجريبية، وهذه الظاهرية جعلت من المعرفة نسبية ينتابها الشك، وكان لهذه الفكرة تأثير قوي في العصر الحديث، "فهيوم" كان معجباً بقدماء الشكاك، وكان ينعت نفسه بالشاك ويرى أن الفلسفة هي هذا الشك[1] .

فالشكية تطورت، وتجسدت معانيها في النسبية، وبداية هذا التجسيد ظهر مع الفلسفة النقدية **"لكانط"(1724م-1804م)** التي عملت على التقريب بين التجربانية والعقلانية، حيث كان تفسير "هيوم" للسببية مصدر استفاقة "كانط" من نومه العميق، حيث قال:" هو أو شيء قطع سباتي الدوغماتي وأعطى بحوثي في مجال النظرية التأملية اتجاها مختلفا كل كل الاختلاف"،[2] هذا ما تحمله الفلسفة الكانطية من حقيقة رسمت حدود العقل في بناء المعرفة، "فالحقيقة الوحيدة التي يمكن معرفتها تنحصر في عالم الظواهر أي ما نستطيع أن نقف عليه، ونقيم بصدده علماً تجريبيا، ويقصد بذلك الواقع المشروع أي الواقع الذي استطاع العلم الميكانيكي أن يؤكد نظام قوانينه كقانون العلة وقانون المعلول والحركة"[3]. أما عالم الشيء في ذاته، فإنه غير قابل لأن يخضع لذات الشروط التي يخضع لها عالم الظواهر، ومن ثم كانت معرفته نسبية لا تحمل الحقيقة، لأنها خارجة عن قدرة العقل الإنساني، ويقصد المعرفة الميتافيزيقية التي لا يمكن إدراكها كالحرية والخلود والله"[4]، وهذه كلها مفاهيم خارجة إطار التجربة، وفي نظر "كانط" فحقيقة الشيء في ذاته لا يمكن للعقل البشري إدراكها، وهذا ما يبين محدودية ونسبية العقل في إدراك الحقائق كما هي. فالشيء في ذاته يقيد الحساسية[*]كما يؤكد ذلك "كانط".

يرفض "كانط" المشروع العقلاني الذي يطلب معرفة المطلق المجاوز للتجربة، إذ من المستحيل في رأيه أن يضيف وجودا من دون الرجوع إلى عالم التجربة، ومن هنا خلص العقل من سجن المطلق، ومن جهة أخرى لا يطمئن كثيراً للمعرفة التي تأتي عن طريق الإحساس من دون تدخل قدرة العقل الفاعلة، تلك القدرة التي ترتكز على جملة من المفاهيم التي تنظم شتات الخبرة الحسية.

كما ظهرت فلسفة النسبية عند **"وليام هاملتون"(1788م-1856م)** فيما يسميه "التفكير شرط" أي أن المعرفة نسبية، وحددها في ثلاثة وجوه: الأول يقوم في نسبة بين حدين يجمع بينهما في الحكم، والثاني يقوم في النسبة بين ذات عارفة وموضوع معروف، يحد أحدهما الآخر، أما الثالث فيقوم في نسبة بين جوهر وعرض، فيدرك الجوهر بالعرض، ويدرك العرض بالنسبة إلى الجوهر، سواء أ كان العرض ذاتياً للجوهر أم خارجياً كالزمان والمكان"[5]. هذه النسب عند"هاملتون" قوام كل تفكير، وعدم الاعتراف بها يؤدي إلى محو المعرفة، لأن كل معرفة نسبية وليست

---

[1] - يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، مرجع سابق، ص 179

[2] – كونتفهام جون،العقلانية،تر، محمود منقد الهاشمي، مركز الإنماء الحضاري حلب، سوريا، ط1، 1997م ص97.

[3] - يفوت سالم، فلسفة العلم المعاصر، ومفهومها للواقع، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1986،1م، ص25

[4] – زيتوني شريف، مشروعية الميتافيزيقا من الناحية المنطقية، مرجع سابق، ص156.

[*] - الحساسية مصطلح استخدمه كانط للتعبير عن قابلية الإنسان على إدراك الموضوعات الخارجية، كما نتلقاها، لأن المعرفة كمادة ظاهرية ترتبط بالإحساس.

[5] - يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، مرجع سابق، ص337.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مطلقة، فكل ما يدرك يكون مشروطا بمعنى نسبي. وكل مطلق يدخل ضمن اللامشروط، لا يمكن إدراكه، وما يدخل ضمن إدراكنا هو المشروط أو النسبي، فيدرك إدراكاً موضوعياً من خلال وضع شروط للتفكير، أي عند تفكيرنا في أي شيء، فإننا نحدده حتماً بعلاقته بشيء آخر، يكون شرطاً له. وفكرة المطلق غير معقولة، ولا يمكن أن نفهم أية بداية إلا بوصفها مشروطة بظاهرة أخرى، فالمعرفة المطلقة مستحيلة، فهو يؤكد أن المرء لا يعرف الأشياء، بل العلاقات فمعرفة الظواهر الطبيعية لا تكون إلا بأحوال وعينا، فلا توجد حقيقة مطلقة، فما يوجد سوى أحوال وعي، فالأشياء في ذاتها لا يمكن معرفتها سواء استخدمنا العقل أو التجربة.

أما "**منسل**"(**1820م– 1879م**)،"فدعا إلى نسبية المعرفة العلمية حتى لا يكون العلم معترضاً فهو يدافع على الدين واللاهوت من خلال رفض مطلقيه العقل فهذا الأخير له حدود، وبالتالي "كل ما لا نستطيع فهمه يجب أن نؤمن به"[1] فهو يبرهن على النسبية دفاعاً عن الدين، فالعلم مادام نسبياً، فهو لا يمتلك الاعتراض على الوحي، فالتناقضات ليست ناشئة عن الدين، لأن مصدره الوحي، وإنما هي ناشئة عن حدود العقل، وفكرة المطلق في نظره تتمثل في الله، بينما تعامل البشر فيما بينهم قائم على كل ما هو نسبي.

كما ظهرت فكرة النسبية عند "**أنطوان كورنو**"(**1801م-1877م**)، ومعناها عنده أن المعرفة لا تقع إلا على نسب وعلاقات موضوعية، فالمعرفة عنده موضوعية، لكنها تترتب على علاقات يغلب عليها الطابع الاحتمالي، فهي لا تصل إلى تحقيق اليقين والمطلق، فالإنسان يتعامل مع الأشياء التابعة له في حياته، فهو يدركها من الناحية التي تهمه دون معرفة حقيقتها المطلقة التي تحملها في ذاتها، كما ندرك الأشياء في علاقاتها بعضها ببعض"[2].

بمعنى أن التحقق بالنسبة للإنسان يحدث عندما تقع المطابقة بين الوجود والعقل، فنجاح النظرية العلمية مرهون بهذا التطابق، فكلما تم الربط بين الظواهر ربطاً معقولاً حققت النظرية نسبة من النجاح، وكلما اتسع نطاق التطبيق كانت النظرية أكثر احتمالاً. فالنسبية عند "كورنو" هي نسبة المعرفة إلى الشيء المعروف، وهذا خلاف للنسبية عند "كانط"، وهي نسبية الشيء المعروف إلى طبيعة القوة العارفة.

أما النسبية عند "**برادلي**"(**1846م-1924م**)، أخذت الاتجاه نفسه الذي عرف عند "منسل"، فمفاهيمنا تكون صادقة أو باطلة على الواقع، بوصفه شيئاً يمكن فهمه بدرجات مختلفة"[3]. لقد بين "برادلي" في نظرية درجات الصدق والحقيقة، "أنه لا يوجد صدق مطلق ولا كذب تام، فالقضية الكاذبة لا تثبت على الكذب نفسه، إنما تتوجه إلى الصدق بالتصحيح والتعديل، وهي لا تصل إلى الصدق المطلق، لأن هذا النوع من الصدق ليس في حدود قدراتنا المتناهية، وإنما الصدق له حدود معينة، حيث تحصل القضية على درجة ما من الصدق تؤهلها للوصول إلى الحقيقة، هذا يعني أن الإنسان ليس بمقدوره الوصول إلى المطلق، بل ما يصل إليه هو نسبي محدد"[4].

---

[1] - كرم يوسف،المرجع نفسه، ص339

[2] - يوسف كرم،.المرجع نفسه، ص376

[3] - دليل أكسفورد، مرجع سابق، ص145.

[4] - دليل أكسفورد، مرجع سابق، ص145.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من بين الفلاسفة الذين تبنوا مبدأ النسبية في الفترة نفسها "**هانري بوانكاريه**"(**1854م-1912م**)، حيث أكد أنه من الخطأ وصف نظرية ما بالصحة، إذ ليست هناك نظرية صحيحة بالإطلاق، فالنظريات تتعدل وتتغير باستمرار، وكم من نظرية قامت إلا وجاءت نظرية أخرى لتكذبها، وتلغيها. فالنظرية العلمية لا تكون صحيحة أو غير صحيحة وإنما تكون ملائمة أو غير ملائمة، بمعنى أن النظريات العلمية لا يمكن أن تكون ذات قيمة مطلقة، كما يدعي أنصار المذهب الواقعي الذي يؤمن بوجود تماثل أو تطابق بين معارفنا العلمية والواقع، فكل ما يفعله العالم هو أنه يكشف عن القوانين الموجود في الطبيعة، وهذه القوانين موجود وجوداً موضوعياً، أي وجودا مستقلا عن الذات العارفة، وهذا خلاف للاتجاه الوضعي كما يتصوره "بوانكاريه"، والذي يرى أنه لا يوجد في الطبيعة نظام غير ذلك النظام العقلي الذي يمنحه لها العالم، ويكتفي بالاعتراف للظواهر الطبيعية بتوفرها على نوع من الانتظام، ونجد أن هذا الاتجاه يؤكد أن العالم يخلق القوانين كي يتسنى له أن يصفها بشكل تقريبي، وبحيث تأتي معرفته دائماً تقريبية ونسبية"[1]. وهذا راجع لعدم مطابقة النظرية مع الملاحظة، مما يسمح بوجود تصور وتفسير آخر، "فالنظرية العلمية قائمة دائماً على ما يقدمه الفرض، والنظريات التي تقول إنها تحمل الحقيقة تتوهم ذاك فقط، فهي مجرد رموز يركبها العقل للتعبير عن العلاقات التي تربط الظواهر، حتى أن نظريتين متعارضتين يمكن أن تكون كلتاهما أداة نافعة للبحث، ويمكن أن تكون إحداهما أنفع من الأخرى"[2].

النظرية العلمية عند "بوانكاريه"، تستند إلى مبادئ وصور ذهنية مستنسخة من الواقع، وهذه المبادئ مجرد تعاريف من وضع العالم، ولا تعبر عن معطيات التجربة، وعليه فهي ليست صحيحة أو تحمل الحقيقة، كما أن الصور الذهنية المستنسخة من الواقع لا تحمل الحقيقة لأنها متغيرة، بمعني يمكن للفكر أن يستنسخ الظواهر الطبيعية بصور مختلفة، إذن فالمبادئ تتغير باستمرار، لأنها مجرد مواضعات، والصور الذهنية مجرد نسخ عن الواقع، وهي تتغير كذلك، والشيء الوحيد الذي يبقي ثابتا في نظر "بوانكاريه" هو العلاقات بين الظواهر الطبيعية، وهي دليل على موضوعية العالم الخارجي، غير أن هذه الموضوعية لا تبلغ الكمال، بل الإنسان يسعى إلى تنويع هذه المبادئ والصور الذهنية"[3].

العلم في نظر "بوانكاريه" يهدف إلى معرفة العلاقات بين الأشياء، هذه العلاقات تشيد بناءات مؤقتة، فلا ثبات في العلم، فعمر النظريات محدود، فهي تولد في اليوم الأول، وتشتهر في اليوم الثاني، وتصير كلاسيكية في اليوم الثالث، وفي اليوم الرابع تصبح متخلفة، وفي اليوم الخامس تصير منسية، ولكن لا يعني هذا أن النظرية تسقط بأكملها، فهي تسقط كبناءات، ولكنها كعلاقات تبقى لها أثار، فالوقائع ذات مدلول موضوعي، إلا أن الإنسان لا يستطيع معرفتها بصورة دقيقة، فهو يسعى إلى فهمها، ويكون ذلك من منطلق الذات العاقلة.

على الرغم من ذلك تبقى حقائق الطبيعة خفية علينا دوماً، لذا "فالعالم يسعى من وراء بحثه ليكوّن صورة تقريبية، من هنا نجد "بوانكاريه" يرفض القول بالمطلقية، كما يرفض التطرف في المعرفة، فهو يعترف لكل المناهج بقيمتها العلمية"،[4] وتجدر الإشارة هنا أن "بوانكاريه" ساهم في وضع الأسس الأولى للنظرية النسبية للعالم الفيزيائي "أينشتاين"، عندما بيّن استحالة القول بالحركة المطلقة، والمكان المطلق، والزمان المطلق، إذ صرح قائلاَ: "من كل تلك النتائج إذا تمت البرهنة على صحتها سوف تظهر ميكانيكا جديدة تماماً تتضمن حقيقة أنه ليس هناك سرعة تتجاوز سرعة الضوء، لأن الأجسام ستعوق أي زيادة في القصور الذاتي تؤدي إلى تسارع حركتها ويصبح هذا

---

[1]- شغموم الميلودي، الوحدة والتعدد في الفكر العلمي الحديث، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت (ب ط)، 2007م، ص122.

[2]- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، مرجع سابق، ص438.

[3] - الجابري محمد عابد، المنهاج التجريبي و تطور الفكر العلمي، ج2، دار النشر المغربية، دار البيضاء (ب ط) (ب ت)، ص102.

[4]- شغموم الميلودي، الوحدة والتعدد في الفكر العلمي الحديث،مرجع سابق.ص121.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

القصور لانهائياَ عند الاقتراب من سرعة الضوء، وأن الراصد المتحرك سوف يتوصل إلى عدم وجود سرعة تتجاوز سرعة الضوء، وهذا الراصد لا يستعمل نفس الساعات التي يستعملها الراصد الثابت، فإن الساعات سوف تسجل وقتاً محلياً"[1].

أما النظرية النسبية "**لأينشتاين"(1879م-1955م)** في ميدان الفيزياء، التي ظهرت في بداية العشرين، والتي أحدثت ثورة في الكثير من المفاهيم، بسبب التجارب العلمية الجديدة التي أفضت إلى لتفسيرات القوانين الكلاسيكية، حيث قال **بوخيسكي**:"إن توصل الفيزياء الجديدة إلى العديد من الاكتشافات الهامة، وعلى رأسها نظرية النسبية...قد أدي إلى التشكيك، في صحة العديد من النتائج العلمية التي كانت الفيزياء القديمة، ترفعها إلى مرتبة المسلمات التي لا يتطرق إليها الشك"[2] ومن بين ما شملت عليه هذه النتائج الأسلوب الذي يتفاعل به الضوء مع الإلكترونات، واكتشاف أن سرعة الضوء لا تتغير بتغير سرعة الرصد، وهكذا أصبح من الضروري حدوث ثورة جذرية في المفاهيم الفيزيائية، وهو ما يطلق عليه بالفيزياء الحديثة، ممثلة في النظرية النسبية وميكانيكا الكم، التي زعزعت الكثير من المفاهيم الأساسية التي رسخت في أذهان العلماء بعضها على المستوى الفلسفي كمفهوم الحتمية، وبعضها على المستوى العلمي كمفهوم المادة والحركة والجاذبية، فعلى المستوى العلمي أجريت العديد من التجارب من أجل معرفة قوانين الطبيعة، وفي عام 1905م وصل "أينشتاين" إلى الاقتناع بأن المعلومات التجريبية تدفعنا إلى قبول حقيقتين في الطبيعة الحقيقة: الأولى هي أن سرعة الضوء كما تبين القياسات تظل ثابتة بغضّ النظر عما إذا كان مصدر الضوء هو المتحرك، أو من يقوم بالقياس، أما الحقيقة الثانية تكمن في أن السرعات المطلقة لا يمكن قياسها والسرعات التي يمكن تعيينها فحسب، هي السرعات بالنسبة للأجسام أخرى"[3] .

وبناء على صحة هاتين المقولتين، تمكن "أينشتاين" من تبيان أن الكثير من الجوانب غير المتوقعة للعالم من حولنا لازالت في طي المجهول، حيث عرفت المنظومة الأينشتاينية فكرة الزمان الخاص أو النسبي مكان الزمان الكلي المطلق، كما هو في تصور القدماء، لقد أسقط "أينشتاين" المفهوم المطلق للأشياء، فلا وجود للزمان المطلق، ولا للمكان المطلق، ولا للكتلة المطلقة، بل لاشيء في العالم له صفة الثبات أو السكون المطلق، ولا توجد حقيقة مطلقة يمكن أن نصف بها هذا العالم، إلا أنه عالم نسبي، جميع ما فيه يتصف بالنسبية، فالجسم الساكن الذي لا يتحرك حقيقة بالنسبة لراصد ساكن أيضاً، أما إذا تحرك هذا الراصد فإنه سيرى هذا الجسم يتحرك بسرعة نفسها في اتجاه معاكس"[4]. كما أن سرعة أي جسم يمكن أن تتحدد بقيم مختلفة، وذلك باختلاف المنظومات الإحداثية التي من خلالها نجري عملية القياس، والذي لا يتمتع بصفة الصحة المطلقة، بل يعتمد على المنظومات الإحداثية، فكل القياسات التي يقوم بها العالم الطبيعي هي حقيقة بالنسبة لمنظومته الإحداثية فقط، فالشيء الوحيد الذي يتميز بالمطلقية عند "أينشتاين" هو سرعة الضوء. وهكذا أثبت "أينشتاين" أن قوانين الطبيعة تتغير بتغير الحركة حيث تمضي الساعات المتحركة ببطء عن الساعات الساكنة، وإذا بلغت الحركة مقدار

---

[1] ألبرت أينشتاين، النسبية الخاصة والعامة، تر، د.رمسيس شحاتة، دار النهضة مصر، القاهرة، (ب ط) 1980م ،ص25.

[2] - نقلا عن عبد المعطي محمد على، مقدمات في الفلسفة، دار النهضة العربية، بيروت،1985 م،(بط)،ص200

[3] - بوش جيرد فريدريك و جيرد أ دافيد،أساسيات الفيزياء ج5 ، الخاص بالفيزياء الحديثة، تر، سعيد الجزيري وأمين سليمان،دار الد للإستثمار الثقافي،مصر القاهرة، (ب ط) (ب ت) ص986 .ولية

[4] - حسين العلوي جاسم، العالم بين العلم والفلسفة، المركز الثقافي العربين، دار البيضاء، المغرب،ط1، 2005م، ص83.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

سرعة الضوء فإن الساعات تتوقف تماماً، كما أن الجسم المتحرك يتغير حيث ينقص طوله كلما زادت سرعته، وعند بلوغه سرعة الضوء يصير طوله صفرا، وكذلك كتلة الجسم تصل إلى قيمة لا نهائية عند سرعة الضوء. فالنظرية تثبت نسبية التزامن حيث الزمن يختلف باختلاف المحاور المرجعية"[1].

يترتب عن هذا "أن الزمن والمسافة سوف يختلفان، بمعنى أن المقاييس التي نستخدمها لقياس الأشياء لن الأشياء لن تكون صحيحة بصفة مطلقة لاختلاف موضع القياس من الزمن، كما يترتب عن هذا أيضاً اختلاف اختلاف وحدات الزمن المحلي أو نسبية الوحدة الزمنية، ونسبية السرعات بالنسبة للمشاهد، وتغير ملازم بين الكتلة بين الكتلة والسرعة. بمعنى أن كتلة الجسم تزداد مع السرعة وتقترب قيمتها من اللانهائية في الحالة التي تقترب فيها سرعتها من سرعة الضوء"[2]

من خلال هذه النظرية نستشف النتائج الفلسفية، "وتتمثل بداية في استبعاد فكرة المطلق، حيث لم يعد الزمان منفصلاً عن المكان، بل أصبحا يكونان متصلاً واحداً رباعي الأبعاد، ولقد ترتبت عن ذلك نتيجة هامة، هي أنه لم يعد هناك ما يعرف بالزمان التاريخي أو الزمان الواحد الفريد، ويقصد به الزمان الذي يسير في اتجاه واحد، بل تعددت المتواليات الزمنية، وأصبحت مرتبطة بالإنسان الذي يرصد، ويحدد الحركة. فاختفت فكرة المطلق من العلم الفيزيائي، وذلك بانهيار أساسها المنطقي "الأثير"، فصارت القوانين العلمية نسبية ليس بمعنى أنها تفتقر إلى الدقة واليقين، بل بمعنى أن كل حقيقة علمية أصبحت تتوقف على حقيقة أو حقائق أخرى"[3].

هذا الطرح العلمي الذي أسس صرحه على فكرة النسبية أصبح نموذجاً للفكر الفلسفي العلمي المعاصر، خاصة مع ظهور الحركة الفكرية ذات التوجه النسبي التي عالجت مشروعية النتائج العلمية، بدءاً بـ**"توماس كون" (thomas kohn)**الذي ينكر وجود معيار شامل، يتيح الحكم لنظرية ما بأنها أحسن النظريات، لأن الحكم على النظريات بأنها حسنة أو سيئة، يتغير من زمن إلى آخر، ومن فرد إلى آخر، أو من جماعة علمية إلى أخرى، فالعلم في نظر "توماس كوهن" هو نتاج لمجهود جماعة علمية في فترة زمنية معينة، إذ يقول:"لا توجد أي سلطة أعلى من سلطة إجماع الفريق العلمي المعني"[4]. وهذه الجماعة تعمل في إطار النموذج بعد حدوث الأزمة في سياق العلم العادي، فتحدث ثورة تؤدي إلى استيعاب ظاهرة من نوع جديد من قبيل فيزياء "أينشتاين"، فهي نظرية خلقت أزمة، وعبر هذه الأزمات العلمية تنبثق، وتظهر النظريات العلمية الجديدة، التي تغير المفاهيم العلمية والوقائع التجريبية، فتتغير بذلك تقاليد البحث، من هنا نجد "كوهن" يعبر عن نزعة نسبية لدى الجماعات العلمية، فكل الخصائص المميزة للتقدم العلمي، ومختلف المعايير التي تتخذ في الحكم على مزايا النظريات العلمية سوف تظل متعلقة بالأفراد، أو بالجماعات العلمية التي تلتزم بها. وعليه فكل الأعمال التي يقوم بها المشتغلون بالبحث العلمي سواء كانوا أفراداً أو جماعات، من قرارات وتجارب تكون محكومة بما يضفي عليه هؤلاء الأفراد أو هذه الجماعات من قيمة، داخل إطار البحث وفي وضعية معينة، ويصعب تعميم هذا القرار في وضعيات أخرى مختلفة، وهذا ما يعبر عنه "كوهن" بالنموذج، إذ لا يوجد معيار واحد شامل ومطلق يفرض اتخاذ قرار في كل الوضعيات، بل يكون من الوجهة المنطقية ضرورياً فقط بالنسبة للمشتغلين بالعلم في إطار النموذج، فالنزعة الفردية النسبية في فلسفة "كوهن" تؤكد أن فهم الاختيارات العلمية التي يقوم بها المشتغلون بالعلم تستدعي أن نفهم وبصورة خاصة ما يضفي عليه الباحث من قيمة، ولما كانت معايير الحكم على ما للنظريات من مزايا تصدر عن صاحبها، فهو في ذلك يراعي في إصدار أحكامه قيم

[1] - مرحبا محمد عبد الرحمن، أينشتاين، منشورات عويدات،بيروت، ط1، 1983م، ص74.

[2] - ماهر عبد القادر، مشكلات الفلسفة، مرجع سابق، ص194.

[3] - محمد عبد الفتاح بدوي، فلسفة العلوم، مرجع سابق، ص246

[4] - شالمرز الان، نظريات العلم، مرجع سابق، ص107 .

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

الجماعة ومصالحها، وبذلك فإن التمييز بين ما ينتسب للعلم، أي بالنسبة للنموذج الإرشادي المعمول في إطاره، فالحكم لا يمكنه أن يتجاوز النموذج، بل يبقى محصوراً في إطاره، ولا يمكن تعميمه في نموذج آخر، لأن لكل نموذج طابعه الخاص، ولكل نظرية علمية مقاييسها الخاصة بنموذجها الإرشادي الذي تعمل به.

أما أبحاث **"بول فيرابند"(paul feyeraband)** وإسهاماته الثورية في فلسفة العلم، كانت تصوره النسبي والشكي، حيث ضرب بكل قواعد المنهج العلمي عرض الحائط، وأعلن بكل جرأة أنه ضد رفض كل القوانين العلمية، والاتجاهات العقلانية التي تقيد الحرية الإنسانية. فالتصور النسبي عند "فيرابند" كان نتيجة لعيوب التصورات العقلانية السابقة، خصوصاً التصورات الوضعانية التي كانت ترى أن العلم صارم والمعرفة فيه معرفة يقينية، وإلحاحها الشديد على نقاء لغة العلم والتركيز على الشروط الصارمة لمتطلبات العقلية العلمية، والاحتكام إلى معايير جاهزة، مع وجود صعوبة في تحقيق ذلك، كل ذلك أدى إلى ظهور النزعة الشكانية التي لا تقتنع بأي معيار. فرفض "فيرابند" اختزال العلم في قوالب جاهزة فهو يؤكد قائلاً:"من المفترض أن تحتوي النظرية الشاملة على انطولوجيا تحدد ما يوجد، وبذلك تخطط مجال الحقائق الممكنة والأسئلة المحتملة، ويتفق طور العلم مع هذه الاعتبارات تم تظهر أراء جديدة في اتجاهات جديدة وتفند المشكلات الأقدم"[1].

يفهم من هذا القول أن "فيرابند" يؤكد على دور المجهودات الفردية في دفع عجلة التطور وأن العلم لا يمكنه أن يختزل في نموذج صارم واحد يدعي اليقين والصدق، من هنا تتضح النزعة النسبية عند "فيرابند" القائمة على تنمية النزعة الفردية، والخصوصية التي تتخذ من حرية الأفراد أساساً لعملية الإبداع، حتى وإن كان ذلك يفتقر إلى النظام والمنهجية، فتنوع المعايير واختلافها تتيح الفرصة لعملية الاختيار أمام هذا الشتات المتنوع من المعايير.

خاتمة :نستنتج مما سبق أن مجال المعرفة مهما اتسع، يبقى نسبي ومحدود ومتعدد لا يقبل الحصر في نظرية دون الأخرى، فلا يوجد تصور كوني خالد يدعي اليقين، وليس هناك صنف وحيد من المعرفة يسمى علماً، لذا يبقى الشك أسلوب منهجي نسعى من خلاله للمزيد من المعرفة ومهما بلغت من تطور تبقى هي بدورها نسبية وتاريخ كل من العلم والفلسفة يشهدان على ذلك.

[1] – فيرابند بول، ضد المنهج، مصدر سابق، ص265

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com